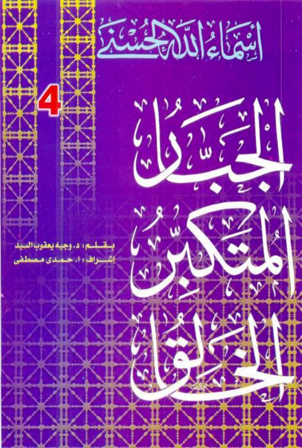


أسماء الله الحسنى
4
الجبار
المتكبر
الخالق
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : ا. حمدى مصطفى



كانَ مَشْهداً عَجيباً ومُؤثِّراً ذلك الذى شاهَدَهُ بَنُو إسْرائيلَ ، فَفِى لَمْحِ الْبَصَرِ انشقَّ الْبَحْرُ وعَبَرَ مُوسى وبَنُو إسْرائيلَ على أرضٍ يابسة ، وعِنْدما حاولَ فِرْعَوْنُ ذلكَ الْمتكَبِّرُ الْعَنيدُ أنْ يلْحَقَ بهمْ لكَىْ يفْتِنَهُمْ عنْ دينهمْ أدْرَكَهُ الْغَرقُ ، فصاحَ وهو فى سكَراتِ الْموْتِ : آمَنْتُ أنَّهُ لا إله إلا الذى آمَنَتْ به بَنُو إسرائيلَ .

لكنَّ الأمْواجَ كانت قد ابْتلَعَتْهُ ، ثم لَمْ تَلْبَثْ أنْ طرحَتْهُ على الشاطئِ ببَدَنه وجَسَده ميتاً بلا حَراك ، وجعلَ النَّاسُ يَمُرُّونَ عليه وهمْ يتعَجَّبُونَ ويقُولونَ :

ـ سُبْحانَ « الْجَبَّارِ » الذى أهلكَ هذا الطَّاغيةَ الْمُتَجبِّر ، فإنهُ عزَّ وجلَّ لا يُنازعُهُ أَحدٌ فى سُلْطانه وملَكُوته إلا قَصمَهُ !

ومرَّتْ قافلَةُ الزمان حتَّى شاءَ اللهُ أنْ يبْعثَ مُحمدًا ﷺ بدين الْحَقِّ ، فعلَّم أمَّتهُ التَّواضعَ والرَّحمةَ ، وأنَّ العزَّةَ لله والْمُلْكَ والْجَبروتَ لله ، فهو الْجبَّارُ الذى يُنفِّذُ مَشيئَتَهُ فى خلْقه ولا يقْدرُ أحدٌ على إمْلاء مشيئَته عليْه عزَّ وجلَّ ، فهو الْمُتفرِّدُ بعُلُوِّ مرتْبته ، ويخْضعُ لعظَمته وقُدْرته كلُّ شيءٍ .. كُلُّ شيْءٍ .

ومنْ معانى اسْمه تعالى « الْجبَّار » أيضًا أنَّهُ تعالى يُصلحُ شُئُونَ النَّاس ، وهُو الْمُتكفِّلُ بجبْر مفاقر خلْقه ويكْفيهمْ أسْبابَ الْمعَاش والرِّزْق ..

فالجبَّارُ مُشْتقٌّ منْ « جبر » بمعْنى أغْنى الْفقيرَ وأصْلحَ الْكسيرَ ، حيْثُ إنَّ الْجبْرَ فى اللُّغة معْناهُ الإصْلاحُ .

والْجَبَّارُ أيْضاً يَعْنى الْعالى الذى لا يَصِلُ إليه أَحَدٌ ولا يَسْتَطيعُ أحَدٌ أنْ يَنالَهُ بشَىْءٍ ، فاللهُ سُبْحانه وتعالَى هو الذى لا يُنالُ . وقدْ قيلَ للنَّخْلَةِ التى لا يَصِلُ إليْها أَحَدٌ نخلَةٌ جبَّارَةٌ على سَبيل التَّشْبيه .

والجبَّارُ كوَصْفٍ منْ أوْصافِ اللهِ تعالى وكاسْمٍ منْ أسْمائه الْحُسْنَى وصْفٌ حَميدٌ ليْسَ ذَميمًا ، لأنَّ اللهَ تعالَى مُنزَّهٌ عن كُلِّ ما يُناقِضُ كَمالَهُ الْمُطْلَقَ ، فالجَبرُوتُ الْبغيضُ هو أنْ تجْبُرَ إنْسانًا وتقهرَهُ على ما تُريدُ حتى وإنْ كانَ فى هذا القَهْرِ ظُلْمٌ أوْ عُدْوانٌ ، أو فيه ما يتعارَضُ معَ مَصْلَحَته .. لكنْ لوْ نظرْتَ إلى جَبَرُوت الله تعالى لوَجَدْتَهُ فى صالح الإنْسانِ ، وليْسَ ضدَّهُ أو ضدَّ مَصالحه ، لأنَّهُ سُبْحانَهُ وتعالَى يُحبُّ خَلْقَهُ ويريدُ لهمُ الثَّوابَ والْكَرامَةَ .

ولوْ تركَ اللهُ أمْرَ الإنْسانِ لنفسه لما خَلاَ منَ الْعبثِ والْمُعانَاة والألمِ ، ولَتوقَّفَتْ مَسيرَةُ الْحَياةِ .

أما لفظُ « الْجبَّار » حينما يكونُ وصْفًا للْبشَر ، فيالَهُ منْ وصفٍ بغيضٍ ذميمٍ ، يملأُ النَّفسَ بالْجزعِ والرُّعبِ لمُجرَّدِ ذكْرِ صاحبه ، لأنَّه يمثِّلُ أسْوأَ صُورِ اعتداءِ الإنْسانِ على أخيهِ الإنْسانِ ، على الرَّغْمِ منْ أنَّ النَّاسَ جميعًا سَواسيةٌ كأسْنانِ الْمُشْطِ .

وقد احْتفظَ التَّاريخُ بنماذجَ منَ الْبشرِ وصلوا إلى حدٍّ منَ الطُّغْيانِ والظُّلْمِ لا يُطاقُ ، لكنَّ اللهَ تعالى كانَ لهمْ بالْمرْصادِ .

فالنُّمْرُودُ الذى زعَمَ - وهو يجادلُ سيِّدنا إبْراهيمَ - أنَّهُ مثلُ اللهِ يُحْيِى ويُميتُ ، أماتَهُ اللهُ ميتةً ذليلةً وجعلَهُ عبْرةً لمنْ يعْتبرُ .

وفرعَوْنُ وهامَانُ وجُنودُهما ، هؤُلاءِ الْجبَّارونَ الْمتغطْرسُونَ ، ماتوا غرقًا وفى الآخرةِ لهم أشدُّ الْعذابِ .

وطواغيتُ مكَّةَ وجبَّارُوها الذين حاربوا الرَّسولَ ﷺ ،

وكفروا بالله وصمُّوا آذانهم عن سماع الْحقِّ ، وبطشوا بالمسلمين ، ماتوا جميعًا فى أول معركة بين الحق والنور فى معركة بدر الكبرى .

مات الوليد بن المغيرة وأبو لهب ، وكان مقتل الوليد على يد عبد الله بن مسعود الذى كان عبدًا مملوكًا له في يوم من الأيَّام .

ولا تخلو الحياة أبدًا من وجود هؤلاء الجبَّارين ، فهم موجودون فى كل عصر ، ولهم صور مختلفة ، لكنَّ الله تعالى دائمًا لهم بالمرصاد ، وهو الجبَّار القهَّار الذى لا يخرج شىء فى الوجود عن إرادته وحكمته .

قال تعالى :

﴿ هو الله الَّذى لا إله إلاَّ هو الملك القدُّوس السَّلامُ المؤمن المهيمن العزيز الجبَّار المتكبِّر ﴾ .

(الحشر : ٢٣)

فسبحان الجبار الذى عنت له الوجوه ، وخضع له كلُّ شىءٍ فى الوجود !



المُتكبِّر

تلكَ الخزائنُ المُكتظّةُ بالذّهبِ والفِضّةِ ـ الّتى منحهُ اللهُ إيّاها ـ جعلتْهُ يمشى بينَ النّاسِ فى زَهْوِهِ وغُرورِهِ وكِبْريائِه ، وهوَ يظنُّ أنّهُ ليْسَ على ظهْرِ الأرْضِ مَنْ هوَ أفضلُ منْهُ حتى نبىُّ اللهِ موسى نفْسُه ، ونَسى قارونُ أنّ هذا المالَ هو مالُ اللهِ فازدادَ كِبْرًا فكانَ يَخْطُرُ على النّاسِ فى زينَتِه ، ويمْشى مِشْيَةَ المُتكبّرينَ المُتغطْرِسينَ .

لكنَّ اللهَ تعالى ـ بعْدَ أنْ أعطاهُ الفُرصَةَ وأمْهلَهُ وأنْذرَهُ ـ أمرَ الأرْضَ فانشقّتْ وابْتلعتْ قارونَ وكُنُوزَهُ وقُصُورَهُ فأصْبحَ عِبْرةً لِقَوْمِ مُوسى والمُسْتضْعَفينَ فى الأرْضِ .

وجعلَ الناسُ يَنْظُرونَ إلى ما حَدث لهذا الْمُتكَبِّر فيحْمَدونَ اللهَ الذى خلَّصَهُمْ منه ولسانُ حالِهِمْ يَقُولُ :

ـ بُعْدًا لهذا الْمُتكبِّر ، فالْعَظَمةُ والكِبْرياءُ للهِ وَحْدَهُ ..

ومَرَّتِ الْقُرونُ ودارَتْ عَجَلَةُ الزَّمانِ ، ومازالَ الناسُ يُبْغِضُونَ الْمُتكبِّرِينَ منَ الْبَشَرِ ، لأَنَّ الْكِبرياءَ من حَقِّ اللهِ تعالَى وحْدَهُ . فالمتكبرُ هو اللهُ .. وهو يَعْنِى أنَّهُ تعالَى هو الْمُتَفرِّدُ بالعَظَمة والكِبرياء ، الْمُتَعالى عَنْ صِفَاتِ الْخَلْق ، فلاَ كِبرياءَ إلاَّ لنفْسِه ، وكُلُّ المخْلوقات خاضعَةٌ لعظَمتِه ، فالمتكبِّرُ وصفٌ لا يليقُ إلاَّ به تعالَى لأنه يدلُّ على صِفَاتِ الْكَمالِ والْجَلالِ والْعظَمة .

فعَنْ عبْد اللهِ بن عُمَرَ ـ رضى اللهُ عنهما ـ قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : يطْوى اللهُ عزَّ وجلَّ السَّماوَاتِ يومَ الْقيامَةِ ثم يأْخُذهُنَّ بيده الْيُمْنى ثم يقولُ : أنا الْمَلِكُ ،

أَيْنَ الْجبَّارونَ ؟ أَيْن المتكبِّرونَ ؟ ثم يطْوى الأَرَضِينَ بشَماله ثم يَقُولُ : أنا الْمَلكُ ، أين الجبَّارونَ ؟ أينَ الْمتكبِّرونَ ؟ (رواه مسلم)

هذه الْحقائقُ ينْبغى أَنْ تكونَ كالْمُسلَّمات التى لا تَقْبَلُ الشكَّ ، فالْمسلم يؤمنُ بكلِّ صفات الله الدَّالة على مُطْلَق كَماله وجَلاله ، لكنَّ الْجاحدين والْمتكبِّرين هُمُ الذين يَمُرُّونَ على آيات الله فلا يَلْتَفتوا إِليْها .

والْكبْرُ هو الذى يمنعُ الْبشَرَ من الْوُصول إلى هذه الْمعْرفة ، فهو يُشْبهُ السَّاترَ الذى يَحْجبُ الرؤْيةَ ، وهو يهيِّئُ للإِنْسان أنَّه أَفْضلُ منْ كل الْبَشر ، ويجْعلهُ يَنْسى أَنَّ الذى أعْطاهُ الْمالَ والصِّحةَ والْمَنْصبَ هو اللهُ وحْدَهُ ، تمامًا كما نَسىَ قارُونُ أَنَّ خزائنَهُ الْمُمْتلئةَ بالذَّهبِ ما هى إلَّا عطاءٌ منْ عنْد الله ، ولذلكَ فعنْدَما حدثَ له ما حدثَ لم تُغْنِ عنْهُ خَزائنُهُ ولا أَمْوالُهُ من الله شَيئًا .

وقد روى أبو هُريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنَّه قال : قال اللهُ عزَّ وجلَّ : « العظمةُ إزارى ، والكبرياءُ ردائى ، فمَنْ نازعنى فيهما ألقيتُه فى النَّار » وفى رِواية « قصمتُه ولا أُبالى »

(رواه الإمام أحمد وأبو داود)

لذلك فإنَّ من أعظم الذُّنُوب التى يرتكبها الإنسانُ ذلك المخلوقُ الضَّعيفُ فى حقِّ نفسه ، أنْ ينتحل من الصِّفات ما ليس من حقِّه ، وما لا يصلُحُ له من صفات لا تجوزُ إلا للحقِّ جلَّ وعلا .

ولأنَّ المسلمين كانوا حريصين على الالتزام بالقرآن والسُّنَّة ، فقدْ كانوا يسألون النبىَّ ﷺ عمَّا يجُوزُ لهمْ وعمَّا لا يجوز حتى لا يقعُوا فى الإثم ، فقدْ سمع رجلٌ الرسولَ ﷺ وهو يقولُ : « لا يدخُل الجنَّةَ من كان فى قلبه مثقالُ ذرَّة منْ كبْر » فلم يلبثْ الرَّجُلُ أنْ سألَ الرسولَ ﷺ فى خوفٍ ووجل وقال : يا رسول الله ، إنِّى امرُؤٌ أُحبُّ أن تكونَ ثيابى نظيفةً ونعلى

نظيفةً ، فهل أكونُ بذلك منَ الْمتكبِّرين ؟
لكنَّ الرسولَ ﷺ طَمأنَ فؤادَ هذا الرجلِ الصَّالحِ وقال : « إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الْجمالَ .. الكِبْرُ بَطَرُ الْحقِّ وغَمْطُ الناسِ »
وأدركَ الرجلُ وأدْركَ معهُ كلُّ الْمسلمين أنَّ الْكِبْرَ ليسَ فى الْمظاهرِ ، ولكنّهُ فى داخلِ النَّفْسِ ، وفى السُّلوكِ السَّيِّئِ الْقبيحِ .
فالْمسلمُ النَّظيفُ الأنيقُ الذى تظْهرُ آثارُ نعمةِ اللهِ عليهِ ليسَ مُتكبِّرًا ، لأنهُ يعْلمُ أنَّ ما فيه منْ نعْمةٍ إنَّما هوَ منْ عنْدِ اللهِ ، أمَّا الْمُتكبِّرُ الْمُتغطْرسُ فإنَّ نفسهُ مريضةٌ ، وسلوكهُ لا يدلُّ إلا على الاسْتعْلاءِ وربَّما ساقهُ هذا الاسْتعْلاءُ إلى ظُلْمِ الناسِ وتضْييعِ حُقُوقِهم وإلى الشِّرْكِ والْجُحُودِ .
على أنَّ الذى يُريدُ أنْ يُعْلِى قدْرَ نفْسهِ ومكانتهِ ، فإنَّ ذلكَ لا يكونُ إلاَّ بالاسْتمْساكِ بكتابِ اللهِ تعالَى وسُنَّةِ رسُولِه ﷺ ، ففى ذلكَ عِزَّةُ كلِّ مُسلمٍ وكرامتُهُ ، ومنْ تواضعَ للهِ رفَعهُ .



كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الأَجَانِبِ مِنْ مُخْتَلِفِ التَّخَصُّصَاتِ مُجْتَمِعِينَ ذَاتَ مَسَاءٍ ، مِنْ أَجْلِ التَّبَاحُثِ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي أَثَارَهَا الْعِلْمُ الْحَدِيثُ ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ عَالِمٌ مُسْلِمٌ !

قَالَ أَحَدُهُمْ فِي زَهْوٍ :

ـ لَقَدِ اكْتَشَفَ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ أَحْدَثَ الْوَسَائِلِ الَّتِي سَتَجْعَلُ مِنَ الإِنْسَانِ سَيِّدًا لِهَذَا الْكَوْنِ بِلَا شَكٍّ ؟

فَرَدَّ عَلَيْهِ الآخَرُ وَهُوَ يُدَاعِبُهُ :

ـ أَجَلْ ، إِنَّ الاكْتِشَافَاتِ الْعِلْمِيَّةَ الْحَدِيثَةَ الَّتِي خَلَقَهَا الإِنْسَانُ ..

فقاطعَه أحدُ العُلَماءِ الْمُسلمينَ الذى كان حاضراً بحُكْمِ تخصُّصِه ، وقالَ فى ابْتسامَةٍ عَرِيضَةٍ :

ـ كَفَى .. لا تُكملْ « فالْخالقُ » بحَقٍّ هو اللهُ ، ولا يجبُ أنْ ننْسَى هذه الْحقيقةَ فى غمارِ نشْوتنا بهذه الْمُنْجزاتِ الْعلْميَّةِ ، والسيِّدُ الْحقيقيُّ للكوْنِ وللإنسانِ هو ربُّهُ الذى خلقهُ منْ عدمٍ ، وسوْفَ أفسِّرُ لكمْ ذلك ونحنُ على الطَّعامِ .

أثارَ حديثُ الْعالِمِ الْمسْلمِ فضولَ هؤلاءِ الْعُلَماءِ فسألُوهُ فى دَهْشَةٍ :

ـ ما معْنَى قولكَ : « الْخالقُ بحَقٍّ هو اللهُ » ؟ وهلْ هناكَ خالقٌ بحَقٍّ وخالقٌ بغيرِ حقٍّ ؟

وفى ثقةٍ أجابَ الْمُسْلمُ قائلاً :

ـ انْظروا إلى السَّماءِ التى فوْقكُمْ ، والنُّجومِ التى تتدلَّى منْها كما تتدلَّى الْقَناديلُ ، والْمَجرَّاتِ والْمجمُوعاتِ الشَّمْسيَّةِ .. ألا ترَوْنَ اتِّساعَها ؟ منَ الذى

يقدرُ على إيجادها ؟ وهلْ كانَ لها وُجودٌ مِن قبلُ ، أمْ أنها وُجِدَتْ مِنَ الْعَدمِ ؟ بلْ الإنْسانُ نفسُهُ الذى تقولونَ عنْهُ : إنهُ أصْبَحَ سيِّدَ هذا الْكَوْنِ ، مَنِ الذى خلَقَهُ بهذه الْكَيْفيَّةِ ؟ إن جسْمَ الإنسانِ وخصَائصَهُ التَّشْريحيَّةَ تؤكِّدُ أنهُ مُعجزةٌ بكلِّ الْمَقاييس ، وأنَّ الذى أمدَّهُ بالْعَقْلِ لكىْ يهْتدىَ إلى هذه الاكْتشافَاتِ الْمُهمَّةِ هو اللهُ - تعالَى - !

وجَدَ كلامُ هذا الرَّجلِ قَبُولاً واسْتحْسانًا لدى هؤُلاءِ الْعُلماءِ فطلَبوا منهُ أنْ يشْرَحَ لهمُ الْمَزيدَ فقالَ :

- سوْفَ أضْربُ لكمْ منَ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ مثَلاً يؤكِّدُ كَلامى ، فقدْ تحدَّثَ اللهُ - تعالَى - عنْ مَراحلِ خلْقِ وتكْوينِ الإنْسانِ وهوَ جَنينٌ فى بطْنِ أُمِّهِ ، وذكَرَ الْحقائقَ التى لمْ تتوصَّلُوا إليْها إلا فى هذا الْقَرنِ !

وفى دَهْشَةٍ حقيقيَّةٍ قالُوا :

- أحَقًّا ؟ ماذا قالَ الْقُرآنُ ؟

فَتلاَ فى خُشوع :

ـ بسم الله الرَّحْمنِ الرَّحِيم . ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظامًا فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون ١٢ ـ ١٤)

ثمَّ تَرْجَمَ الرَّجُلُ لهمْ مَعَانِى الآياتِ وفسَّرَها فَراحُوا فى دَهْشَةٍ عَمِيقَةٍ وبدَا عليْهِمُ التأثُّرُ الشَّدِيدُ ، خاصَّةً وهو يقرأُ الآياتِ بلُغَتِها الْعَرَبِيَّةِ الْعَذْبَةِ .

ثم قالَ الرجُلُ فى نَبْرةٍ تُشْبِهُ التَّحدِّى :

ـ باللهِ عليْكُمْ أَخْبِرونى ، هلْ يَصِحُّ أَنْ نقولَ عَنْ أحدٍ غيرِ اللهِ إنه «الْخالِق» ؟

فأَجابوا جَميعًا فى اسْتِسلامٍ تامٍّ :

ـ كَلاَّ واللهِ ، فهوَ الْخالقُ الْحقيقىُّ الذى أَوْجَدَ كلَّ شىْءٍ منَ الْعَدَمِ ، فما مِنْ أَحدٍ غيرِ اللهِ يَخْلُقُ حيوانًا واحدًا له أَرْجلٌ يمْشِى بها وأيْدٍ يبْطِشُ بها ، وأَعْيُنٌ

يُبْصر بها ، وآذان يسْمعُ بها سوى اللهِ ـ تعالَى ـ ، فسُبْحانَ الْخالِقِ الْخلاَّقِ .

وكـمـا خلقَ اللهُ ـ تعـالَى ـ السَّـمـاوات والأَرْضَ والإِنْسانَ وكلَّ الكائنات ، فقدْ خلقَ أيضًا الْموْتَ والحياة لكيْ يَبْلُوَ النَّاس أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . قال ـ تعالَى ـ : ﴿ تَبارَكَ الَّذى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * الَّذى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ . (الْمُلْك ١،٢)

وإذا تأمَّلْنا وتَدَبَّرنا معْنَى اسْمه ـ تعالَى ـ (الْخالق) لأَدْرَكْنا أنَّ اللهَ ـ تعالَى ـ هو وحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ للْعبادة ، فهو الذى خلقَ كلَّ شيْءٍ وهو وحْدَهُ الْقادرُ على إعادة الْخَلْق مرَّةً أُخْرَى ومُجازاة كُلِّ إنْسان بما صَنَع . .

واللهُ ـ تعالَى ـ (الْخـالِـقُ) الذى خلَقَ كلَّ شيْءٍ ، خلَقَ الإنْسانَ وخلَقَ له كُلَّ وسائلِ الرَّاحة ، فهلْ شَكرَ الإنْسانُ ربَّه وخالقَهُ ؟

رقم الإيداع : ١٤٦٩٠
الترقيم الدولى : ٧ـ٣٥٩ـ٢٦٦ـ٩٧٧